حدود العقل عند الغزالي

العقل الانساني عند الفلاسفة يكون في أول أمره عقلاً بالقوة ، ثم يصير عقلاً بالفعل ، وهذا الانتقال من القوة الى الفعل لا يتم إلا بتأثير العقل الفعال . والعقول تتميز بعضها عن بعض بمقدار استعدادها للاتصال بالعقل الفعال الذي تتلقى منه المعرفة . وفي ضوء هذا العقل يستطيع عقلنا أن يدرك الصور الكلية ، وبه يصير الاحساس علماً يقينياً .

فأنتم ترون أن الفلاسفة قد بنوا المعرفة على العقل ، لأن العقل عندهم يجرد الصور الحسية من اللواحق المشخصة ، وينتزع المعاني الكلية من الصور المتخيلة ، ويؤلف هذه المعاني وفقاً لمبادئ كلية ضرورية ، فهو في نظرهم يوصل إذن الى اليقين ، لا بل هو المحك الأخير للحقيقة ، على زنده تقدح كل معرفة ، فلسفية كانت أو دينية أو صوفية .

ما هو موقف الغزالي من العقل ، هل العقل في نظره قادر على إدراك الحقائق بنفسه أم هو محتاج الى معونة خارجية ؟

للاجابة عن هذا السؤال ينبغي لنا أولاً أن نحدد موقف الغزالي من المعرفة على الاطلاق .

ان موقف الغزالي من المعرفة يختلف عن موقف الفلاسفة في مبادئه وغاياته . فهو قد شك في المعرفة شكاً عاماً ، شك في العلم الموروث ، ثم شك في الحسيات والعقليات . بدأ شكه بنقد مذاهب زمانه ، فتبين له أن هذه المذاهب متعارضة ، وان سبب تناقضها يرجع الى فساد الطريقة المتبعة في تكوين العقيدة واعتناقها ، وهذه الطريقة هي طريقة التقليد ، فان التقليد لا يوصل الى الحقيقة ، ويكفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن يكون الاعتقاد مبنياً على التقليد حتى يتسرب اليه الشك ، قال : « فإن صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام » . لذلك يجب على طالب الحقيقة أن ينبذ التقليد ، وأن لا يبني بحثه عن الحقيقة على العلم الموروث ، لأن المقلد يتحتم عليه المكوث في الضلال ان كان فيه ، أو التقيد بمعتقده التقليدي ، والامتناع عن رؤية الحقيقة اذا لاحت له . أما الباحث عن الحقيقة فلا يعتقد شيئاً أصلاً بل ينظر الى الدليل ويسعى مقتضاه حقاً ونقيضه باطلاً . وهذه هي طريقة الشك بعينها ، فالشك في نظر الغزالي هو إذن الخطوة الأولى للبحث عن الحقيقة ، لأن من لا يشك لا يبحث ، ومن لا يبحث لا يجد ، ومن لا يجد يبقى متخبطاً في غياهب الجهل .

وما كاد هذا الشك يدخل قلب الغزالي حتى استولى عليه كله . طمع أولاً في اقتباس اليقين من الحسيات ، فحكم عليها بما حكم به على التقليديات ، ثم طمع في اقتباس اليقين من العقليات ، فلم يجد فيها ما ينقذه من الضلال ، لأنه قال : إذا كان حاكم العقل يكذب حاكم الحس ، فلماذا لا يكون هناك وراء إدراك العقل حاكم آخر ، اذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وأيّد ذلك بقوله : يمكن أن تطرأ على الانسان حالة تكون نسبتها الى العقل كنسبة اليقظة الى النوم وتكون اليقظة نوماً بالاضافة اليها ، فبمَ نأمن أن يكون جميع ما نعتقده في يقظتنا حقاً . فأنتم ترون أن رحاب الشك عند الغزالي تمتد الى التقليديات والحسيات والعقليات ولولا النور الذي قذفه الله في صدره لبقي على مذهب السفسطة ، الا أنه استطاع أن ينقذ نفسه من الشك بطريقة الكشف الباطني ، فعادت نفسه الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية موثوقاً بها على أمن ويقين بالنور الذي أشرق عليه من الجود الإلهي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما هو هذا النور الذي قذفه الله في الصدر ؟ إننا لا نجد في تآليف الغزالي جواباً على هذا السؤال . فالغزالي يقول في المنقذ من الضلال إن هذا النور هو مفتاح أكثر المعارف ، وأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيّق رحمة الله الواسعة . وان هذا النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام : إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها . والذي يستنتج من هذا النص أن الغزالي يقول : إن هذا النور مفتاح أكثر المعارف ، لا مفتاح جميع المعارف ، وان الكشف ليس موقوفاً على الأدلة المجردة ، بل قد يكون بالأدلة المجردة . وبغير الأدلة المجردة . ومعنى ذلك كله أن للعقل بذاته مبادئ أولية كالقول ان الكل أعظم من الجزء ، وان النفي والإثبات لا يجتمعان معاً في الشيء الواحد في وقت واحد ، وأن الشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً ، وان حدوث الشيء بدون محدث محال . فهذه المبادئ الأولية ضرورية ويقينية يقرها كل ذي عقل سليم لمجرد حضورها في الذهن . وهي فطرية فينا ، لا اختبارية ولا مكتسبة ، لأنها من خواص العقل ، واذا كان العقل محتاجاً في بعض الأحايين الى الجود الإلهي للخروج من الشك ، فان هذا الجود لا يفعل فعله إلا اذا كان مصحوباً باقتناع داخلي ذاتي بصحة مبادئ العقل .

واذا سألنا الآن سائل : الى أي أصل تستند مبادئ العقل عند الغزالي . هل تفرض نفسها على العقل بنفسها ، أم تفتقر الى أصل آخر تستند اليه ، وتستمد منه ثباتها ومتانتها . وبكلمة أخرى ما هو المحكُ الأخير للمعرفة ؟

قلنا اننا نجد عند الغزالي في هذه المسألة رأيين متعارضين : فهو يعترف أولاً أنه لم يستطع أن يَشفي نفسه من الشك إلا بمعونة خارجية . وهذه المعونة الخارجية هي النور الذي ينبجس في القلب من الجود الإلهي . وهو يقول ثانياً إنّ مبادئ العقل ضرورية يقرها حتماً وبغير برهان كل ذي عقل سليم لمجرد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حضورها في الذهن ، فهي تستمد إذن قيمتها من الوضوح الذي فيها . ومن تصفح كتاب القسطاس المستقيم ، والمنقذ من الضلال ، والمستظهري . وجد فيها أقوالاً متعارضة تؤيد هذين الرأيين .

فمن النصوص التي يؤيّد ظاهرها حاجة العقل الى معونة خارجية :

١ – طرح الباطني على الغزالي هذا السؤال : « فبمَ عرفتَ أن ذلك الميزان (ميزان المنطق) صادق أم كاذب ، أبعقلك ونظرك ، فالعقول متعارضة ، أم بالإمام المعصوم الصادقِ القائمِ بالحق في العالَم ، وهو مذهبي الذي أدعو اليه » فأجابه الغزالي : « ذلك أيضاً أعرفه بالتعليم ، ولكن من إمام الأئمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ ، فاني وإن كنت لا أراه ، فإني أسمع تعليمه الذي تواتر إليّ تواتراً لا أشك فيه ، وإنما تعليمه القرآن »[1] . فكأنّ الغزالي يعترف هنا بأنّ صدق الميزان لا يعرف بالعقل بل بالتعليم من النبي .

٢ — ثم إن الغزالي لا ينفكّ يردّد في كتاب القسطاس المستقيم أنّ الله علّم الموازين لجبريل ، وجبريل علمها للأنبياء ، وهؤلاء نقلوها الينا في كتبهم . قال : فانّ الله هو المعلّم الأول ، والثاني جبريل ، والثالث الرسولُ ﷺ . والخلق كلّهم يتعلمون من الرسل ما ليس لهم طريق الى معرفته إلاّ بهم[2] .

٣ – والغزالي يردّ على من يسأل ، وكيف وصلت هذه الموازين الى الأمم التي عَرفتها قبل مجيء الرسل والأنبياء (اليونان مثلاً) فيقول : « أما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن ، وما عندي أني سُبِقتُ الى استخراجها ، ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسماء أُخر سوى ما ذكرته . وعند بعض الأمم السابقة على بَعثة محمدٍ وعيسى صلى الله عليهما وسلم أسامٍ أُخر قد تعلموها من صحف ابراهيمَ وموسى عليهما الصلاة والسلام »[3] .

٤ — وهو يُرجع أيضاً نشوء جميع المعارف المنتشرة بين البشر الى مصدر

(١) القسطاس المستقيم ، ص – ٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص – ٢٢ .
(٣) المصدر نفسه ، ص – ٥٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلهي ، أي الى وحي قديم أنزله الله تعالى على أنبيائه ، وعلّمهم به كلّ أنواع الحكمة ، فعلم الطب لم يكن نتيجة اختبار الأطباء وتجاربهم واستنتاجهم العقلي ، بل كان ثمرةَ وحي أنزله الله تعالى على أنبيائه : « فان أدوية البدن تؤثّر في كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطّلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء »[1] ، وكذلك علم النجوم ، فالسبيل اليه هو إلهامٌ إلهي ، وتوفيقٌ من جهةِ الله تعالى ، وكذلك أيضاً الرياضيات فإنّ مبادئها مأخوذة عن نبي مشفوع بالوحي والمعجزة . وهكذا قل في سائر العلوم .

ومن النصوص التي تدل على أن المحكَّ الأخير للمعرفة هو وضوح المعاني وبداهتها قولُ الغزالي بوجوب الرجوع الى الأوليات عندما تعترضنا قضية غيرُ بينة الصدق : « خذ عِيارَه من العلوم الأولية الضرورية المستفادة إما من الحس أو التجربة أو غريزة العقل ، فانظر في الأوليات هل تتصور أن يتثبّتَ حكم على صفة إلاّ ويتعدّى الى الموصوف ؟ »[2] . وفي كتاب المستظهري يقول الغزالي إنّ التلميذ إنما يقتنع بصحة ما يلقيه عليه معلمه من المعارف ، لا بمجرد إيمانه بقدرة معلمه وصدقه ، بل لأنه يرى بنور عقله صوابَ تلك المعارف .

فهذه النصوص المتعارضة تدل كما ترون على أمرين متناقضين الأول هو احتياج العقل في الوصول الى اليقين الى معونة خارجية . والثاني القول بأن المحكَّ الأخيرَ للمعرفة هو وضوح المبادئ العقلية ، وفي هذا كما لا يخفى تناقض ظاهر . ولكننا اذا علمنا أن المعونة الخارجية لا تنفي بداهة العقل بل تقتضيها وتوجبها ، وأنّ معرفة صحة الموازين بالتعليم من النبي لا تنفي أنّ العقل يتحقق صحتها أثناء أخذها كما يتحقق التلميذ صحة تعاليم معلمه ، اذا علمنا ذلك كلّه لم نجدْ في هذه الأقوال المتعارضة بحسب الظاهر تناقضاً حقيقياً . فالله قد أنزلَ الموازين

(١) المنقذ من الضلال ، ص – ٨٢ .
(٢) القسطاس المستقيم ، ص – ٣٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في كتبه ، ثم أتى طالبو العلم ، وأجالوا النظر فيها فتحققوا صحتها بنور عقولهم .

يقول الغزالي : « والقوة العقلية كأنها القوة الباصرة في العين ، ورؤية الجزئيات الخيالية كتحديق البصر الى الأجسام المتلونة ، وإشراق نور الملك على النفوس البشرية يضاهي إشراق نور السراج على الأجسام المتلونة أو إشراق نور الشمس عليها ، وحصول العلم بنسبة تلك المفردات يضاهي حصول الأبصار بائتلاف ألوان الأجسام ، ولذلك شبه الله تعالى هذا النور على طريق ضرب مثال محسوس بمشكاة فيها مصباح » (معيار العلم ، ص ١٣٦ — ١٣٧) ، فلو لم يكن في العين استعداد للأبصار لما رأت شيئاً بالرغم من إشراق نور الشمس عليها ، فحصول الأبصار ناشئ إذن عن شرطين أحدهما داخلي ذاتي والآخر خارجي . وكذلك حصول العلم في النفوس البشرية ، فهو تابع لشرطين أحدهما استعداد القوة العقلية ، والثاني إشراق نور الملك عليها .

ومما يؤيد ذلك أن العلوم في نظر الغزالي انما تثبت في القلب بطريقين أحدهما طريق الاستدلال والتعليم والثاني طريق الإلهام ، وهو يفضل العلم الذي يحصل في القلب بطريق الإلهام على العلم الذي يحصل فيه بطريق التعلم .

ومن أحسن الأمثلة الدالة على إدراك الحقائق العقلية بطريقي الاستدلال والالهام مثال ذكره الغزالي في كتاب ميزان العمل . قال (ص ٤٧) : « إن أهل الصين والروم تباهوا بحسن صناعة النقش والتصوير بين يدي بعض الملوك . فاستقر رأي الملك على أن يسلم اليهم صُفّة ينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانباً ، ويُرخى بينهم حجاب بحيث لا يطّلع كل فريق على صاحبه ، فاذا فرغوا رُفع الحجاب ، ونظر الى الجانبين ، وعُرف رُجحان مَن رَجَح من الفريقين ، ففُعل ذلك ، فجمعَ أهلُ الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر ، ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صِبْغٍ وهم يجلُون جانبهم ويصقلونه ، والناس يتعجبون من توانيهم في طلب الصِّبغ . فلما فرغ أهل الروم ادّعى أهل الصين أنّا أيضاً قد فرغنا . فقيل لهم كيف فرغتم ،

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يكن معكم صبغ ولا اشتغلتم بنقش ، فقالوا ما عليكم ، ارفعوا الحجابَ ، وعلينا تصحيح دعوانا ، فرفعوا الحجاب واذا بجانبهم وقد تلألأت فيه جميعُ الأصباغ الرومية الغريبة إذ كان قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء ، فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء وظهر فيه ما سعى في تحصيله غيرهم » .

وهذا المثال أيضاً يدل على أن لتحصيل المعرفة طريقين أحدُهما تحصيل عين النقش كطريق أهل الروم ، والثاني الاستعداد لقبول النقش من خارج . ومعنى ذلك أن النفس مستعدة في نظر الغزالي لأن تتجلى فيها حقائق العلوم مباشرة ، وذلك بالتعرض للنفحات الإلهية .

يقول الغزالي : « اذا فرضنا مرآة صدئة قد ستر الخبث صفاها ومنع انطباع صورنا فيها ، فكمال المرآة أن تستعد لقبول الصور فتحيلها كما هي عليها ، وعلى مكملها وظيفتان إحداهما الجلاء والصقل وهي إزالة الخبث الذي ينبغي أن لا يكون ، والثانية أن يحاذى بها نحو المطلوب حكاية صورته ، فكذلك نفس الآدمي مستعدة لأن تصير مرآة يحاذى بها شطر الحق في كل شيء فتنطبع به كأنها هو من وجه وان كانت غيره من وجه آخر كما في الصورة والمرآة » (ميزان العمل ، ص ٣٩ ـ ٤٠) .

وجملة القول ان للمعرفة طريقين أحدهما طريق الاستدلال والآخر طريق الإلهام أي طريق التعرض للجود الإلهي والترصد له . والعقل لا يحتاج الى هذه المعونة الخارجية في المنطق والرياضيات والطبيعيات ، ولكنه يحتاج اليها في الإلهيات . واذا احتاج الى معونة خارجية في مسائل التجربة فان هذه المعونة لا تنفعه إلا على سبيل الدعم والتثبيت ، وما صب النور الإلهي على مباديء العقل ليكسبها وضوحاً وبداهة ، ولكن ليزيل عنها مداخل السفسطة ، ويعيد النفس الى الصحة والاعتدال . ولولا مداخل السفسطة لما احتاج العقل الى هذا النور .

فالغزالي يؤمن بصلاح النظر ومنفعته ، وصدق العقل في حكمه على أمور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التجربة ، ولكنه لا يؤمن بأن العقل المجرد عن الشرع وعن الوحي والإلهام يصلح للخوض في مسائل ما بعد الطبيعة . نعم إنه يصرّحُ بأن من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضة وسائر الجواهر . ولكن هذا القول لا يدل على قدرة العقل على إدراك الحقائق الإلهية ، لأن الفضة وسائر الجواهر هي والذهبُ من جنس واحد ، أما الصفاتُ الإلهية ، وقدمُ العالم ، وبقاءُ النفس بعد الموت ، ومسائلُ الحشر والنشر ، فهي من الأمور التي لا يحكم العقل فيها إلاّ بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين .

واليكم بعض النصوص التي تدلّ على عجز العقل عن إدراك أسرار الأمور الإلهية .

١ — قد يكون أكثرُ هذه النصوص دلالةً على عجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ما ذكره الغزالي في معرض حديثه عن الفلاسفة وقولهم : إنّ الله لا يعرف إلاّ نفسه . قال : « وهكذا يفعلُ الله بالزائغين عن سبيله ، والناكبين لطريق الهدى ، المنكرين لقوله : ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، الظانين بالله ظنّ السوء ، المعتقدين أنّ الأمورَ الربوبية تستولي على كنهها القوى البشرية ، المغرورين بقولهم ، زاعمين أنّ فيها مندوحةً عن تقليد الرسل وأتباعهم . فلا جَرَم اضطرُّوا الى الاعتراف بأنّ لباب معقولاتهم رجعت الى ما لو حكي في منام لتُعُجِّبَ منه » (التهافت ، ص ١٢٠ ـ ١٢١) .

٢ — ومن هذه النصوص قوله في معرض الكلام عن صفات الله : « فجميع ما ذكروه من صفات الأول أو نفوه لا حجة لهم عليه إلاّ تخمينات وظنون تستنكف الفقهاء منها في الظنيات . ولا غَرْوَ لو حار العقل في الصفات الإلهية ولا عَجَبَ . إنما العجب من مُعجَبهم بأنفسهم وبأدلتهم ، ومن اعتقادهم أنهم عَرَفوا هذه الأمور معرفةً يقينية ، مع ما بها من الخبط والخيال » (تهافت ٥٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال أيضاً : «في الناسِ من يذهب إلى أنَّ حقائق الأمور الإلهية لا تنال بنظر العقل . بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . ولذلك قال صاحب الشرعِ تفكَّروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله . فما إنكاركم على هذه الفرقة المعتقدة صدقَ الرسول بدليل المعجزة ، المقتصرة من قضية العقل على إثبات ذاتِ المرسِل ، المتحرِّزةِ عن النظر في الصفات بنظر العقل ، المتبعةِ صاحبَ الشرع فيما أتى به من صفات الله ، المقتفيةِ أثرَه في إطلاق العالِم والمريد والقادر والحي ، المنتهيةِ عن اطلاق ما لم يُؤْذَنْ فيه ، المعترفةِ بالعجز عن دركه بالعقل . » (التهافت ص ١٨٠ — ١٨١) .

٣ — ومن هذه النصوص اعتراضه على محاولة الفلاسفة شرحَ كيفيةِ خلقِ العالَمِ وصدورِ كثرته عن الواحد الأول . قال : «وما المانع من أن يقال : المبدأ الأول عالِمٌ قادر مريد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، يخلُق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد . فاستحالة هذا لا تعرف بضرورةٍ ولا نظر . وقد وردَ به الأنبياء المؤيَّدُون بالمعجزات ، فيجب قبوله منهم . وأما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالإرادة ، ففضول وطمع في غير مطمع . والذين طمِعوا في طلب المناسبة ومعرفتها رَجَع حاصل نظرهم الى أن المعلولَ الأولَ من حيث أنه ممكن الوجود صدر منه فلك ، ومن حيث أنه يعقِل نفسه صدر منه نفس الفلك . وهذه حماقة لا إظهار مناسبة فلتُقْبَلْ مباديءُ هذه الأمور من الأنبياء وليُصَدَّقوا فيها ، فانَّ العقلَ لا يحيلها وليُترك البحث عن الكيفية ، والكمية ، والماهية فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية . ولذلك قال صاحب الشرع تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في ذات الله » . (التهافت ص ١٣١ — ١٣٢) .

٤ — ومن هذه النصوص قولُ الغزالي مجيباً الفلاسفة الذين يزعمون أنهم توصلوا بطريق العقل الى معرفة الغرض من حركة الأجرام السماوية . قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« ان هذه خيالاتٌ لا حاصل لها ، وإنّ أسرارَ ملكوتِ السموات لا يُطّلَعُ عليها بأمثال هذه الخيالات ، وإنما يُطّلِعُ الله عليها أنبياءه وأولياءه على سبيل الإلهام لا على سبيل الاستدلال » (تهافت ٢٥٢) .

وقال أيضاً : « وأنّ هذا إنْ كان صحيحاً فلا يطّلِعُ عليه إلاّ الأنبياء بالهام من الله أو وحي . وقياسُ العقل ليس يدل عليه » (تهافت : ٥٧) .

وقال في مكان آخر : « وما ذكرتموه ، وإن اعتُرف بامكانه ، فلا يُعرف وجوده ، ولا يتحقق كونُه ، وإنما السبيلُ فيه أن يُتَعَرَّفَ من الشرع لا من العقل » (تهافت : ٦٢) .

وقال أيضاً : « ومن الأشياء ما تُعرَفُ استحالتُه ، ومنها ما يُعرَفُ إمكانُه ، ومنها ما يقف العقل عنده ، فلا يقضي فيه باستحالة ولا إمكان » (تهافت : ٦٩) .

٥ — ومن هذه النصوص أخيراً ، قول الغزالي إنّ العقل عاجز كل العجز عن تمييز الخير من الشر ، وإنّ الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذلك هي الوحي . قال : « إن العقل لا يهدي الى الأفعال المُنْجية في الآخرة ، كما لا يهدي الى الأدوية المفيدة للصحة » (الرسالة القدسية أصل ٩ ورقة ٣) .

وقال أيضاً : « ان العقل لا يرشد الى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يُفرِّق بين المشقي والمسعد » (الاقتصاد في الاعتقاد ٨٠) .

وقال أيضاً : « وندعي أنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله وشكر نعمته » (الاقتصاد في الاعتقاد ٢٧) .

وقال أيضاً : « ان في طريق الآخرة وفي دقائق سنن الشرع وآدابه وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسراراً ولطائفَ ليست في سَعَة العقل وقوته الإحاطةُ بها ، كما أنّ في خواص الأحجار أموراً وعجائبَ غاب عن أهل الصنعة علمها » (الاحياء ج ١ ص ٢٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي وسعنا أن نذكر نصوصاً أخرى غير هذه .

أفلا تكفي هذه النصوص التي أوردناها للدلالة على أن العقل عاجز عن الإحاطة بأسرار الامور الإلهية .

واذا أردنا الآن أن نلخص موقف الغزالي من العقل قلنا ان أحكام العقل عنده صادقة في العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية ، وفي كل ما يتعلق بأمور التجربة ، فهو لم يشك في مبدأ الهوية لأن هذا المبدأ أساس المنطق والرياضيات . ولولاه لما صدق عندنا قياس ، ولا ثبت استنتاج ، وهو لم يشك في مبدأ السببية من حيث هو مبدأ عقلي ، بل شك في ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ، ارتباطاً حتمياً ، فأرجع قانون السببية الطبيعية الى الاعتياد ، وجعل الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والسببية الحقيقية ترجع عنده الى علاقة إرادية بين الله والعالم ، أما ارتباط الأسباب والمسببات الطبيعية بعضها ببعض فلا قيمة له بنفسه ، ولا معنى له إلا إذا استند الى إرادة الله ، فالغزالي لم يشك إذن في أحكام العقل إلا شكاً عاماً موقتاً ، فلما وجد نفسه على شفا جرف هار التجأ الى الله تعالى ، فأنقذه الله من الشك ، فهو بالرغم من شكه في كل شيء لم يضيع ساعة واحدة ثقته بالألطاف الإلهية ، وهذا النور الذي قذفه الله في الصدر لا نعرف له تأويلاً إلا قولنا بأنه اقتناع داخلي بصدق أحكام العقل ، فالعقل لا يحتاج إذن الى معونة خارجية إلا في حالتين : الأولى لشفائه من الشك إذا ما انتابته آفته ، والثانية لتنبيهه وإرشاده الى الأمور الإلهية التي لا يمكنه الاطلاع عليها إلا بالوحي والإلهام . أما فيما عدا ذلك فالعقل في نظر الغزالي آلة سليمة صالحة مفيدة وضرورية لاقتناص المعرفة ، أساسه الضروريات العقلية ، وسبيله النظر ، وميزانه قواعد المنطق ، ومحكه الأخير الوضوح والبداهة .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net